ورقة من تاريخ الاستشراق الالماني :

رحلات نيبور وزيتسن ولودكهادت ومن سبقهم من الألمان الى البلاد العربية

بقلم محمد علي حشيشو

إن للرحلات التى قام بها الأوروبيون فى بلاد الشرق، ولما قصوه عن مشاهداتهم فيها أثراً بالغاً فى تاريخ الإستشراق، ودوراً لابستهان به فى ايقاظ الرغبة فى مشاهدة تلك البلاد ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضاراتها. وللألمان من هذه الرحلات وما كتب عنها نصيب يستحق أن يذكر كورقة جديدة فى تاريخ الاستشراق الألمانى. وسنتعرض فى هذه المقالة إلى ذكر ثلاثة رحالين ألمان، أو ناطقين بالألمانية، زاروا البلاد العربية فى القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، وهى الفترة التى فتحت باب الاتصال بين أوروبا والشرق الأدنى، وبدأت بحملة نابليون إلى مصر وسوريا، تلك الحملة التى كشفت النقاب عن أسرار كثيرة كانت مجهولة عن مصر وبلاد العرب. أما اولئك الرحالون فهم : كارستن نيبور، وأولريش زيتسن، ويوهان لودفيج بوركهارت. ولا تقوم شهرتهم على غرابة التجارب والمجازفات التى مروا بها فحسب، بل وكذلك على ما قدموه من معلومات جديدة تماماً، واكتشافات جغرافية واثنولوجية بالغة الأهمية بالنسبة لاجزاء كبيرة من اليمن والحجاز وشرقى الاردن. وقبل الخوض فى موضوع اولئك الرحالين الثلاثة، رأينا من المجدى ذكر مقدمة موجزة عن حركة الرحلات الألمانية إلى الشرق الادنى مع استعراض نماذج منها حتى رحلة نيبور فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر.

كان الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط والبلاد الواقعة عليه، وما ندعوها اليوم بالشرق الأدنى، مناطق ذات جاذبية خاصة لدى قدماء الرحالين والجوالة من الإغريق والرومان. فكان من مفاخر الرحالة المقتدر الطموح أن يتمكن من زيارة مصر ومشاهدة آثارها الهائلة، ومن التعرف إلى النيل الخالد وسر فيضانه الصيفى المعجز. ولكن بانهيار العالم الرومانى أمام غزوات البرابرة من الشمال والشرق، وبانتشار نظام الاقطاع فى اوروبا،

ونشوء الإسلام وفتوحاته فى شمالى افريقيا وفى الشرق. بدأ عهد جديد فى حركة الرحلات من اوروبا إلى الشرق الأدنى. ومع أن الاقطاع خلق عراقيل كثيرة فى سبيل التنقل الحر، إلا أن المسيحية ساعدت على تنشيط السفر وتوسيع حركة التجول. إذ أن الدوافع الدينية التى أدت بالأتقياء إلى زيارة الأماكن المقدسة المنتشرة فى الشرق الادنى والبلاد المقترنة بتاريخ الكتاب المقدس هى التى سادت حركة الأسفار الأوروبية إلى الشرق فى القرون الوسطى. فبينما كان الرحالة الوثنى سائحاً فضولياً، كان سائح القرون الوسطى فى الغالب حاجاً إلى بيت المقدس وبلاد الأناجيل. ولذا فإن مذكرات الحجاج إلى فلسطين هى اقدم ما خلفه لنا الرحالون الاوروبيون من آثار مخطوطة عن الشرق الأدنى فى اوائل العهد الإسلامى. وقد ظل سيل الاوروبيين يتدفق على سوريا وفلسطين من القرن التاسع الميلادى حتى نهاية القرن الحادى عشر، عندما انتقل الحكم إلى أيدى السلاجقة فأخذوا يضيقون الخناق على الحجاج المسيحيين، مما أدى فيما بعد بطريق غير مباشر إلى شن الحملات الصليبية المختلفة. ويضيق بنا المجال هنا لو قمنا بتعداد الحجاج الألمان الذين أموا الأراضى المقدسة قبل الحملات الصليبية وأثناءها. ولكن القارئ يستطيع الرجوع إلى المؤلفات المختصة التى تتناول هذا الأمر[1].

وتمشياً مع روح العهد الصليبى والقرون الوسطى فان روايات رحلات تلك الفترة لاتحمل شيئاً من الود للعرب والإسلام وتزخر بالغيرة على الأراضى المقدسة والخوف عليها من عبث الأيدى المعادية للمسيحية. ومع ذلك فبالرغم من التشابه فى لهجة تلك الروايات الأولى إلا أنها ذات قيمة خاصة حيث أنها تقدم معلومات أساسية قيمة عن التاريخ الحضارى للشرق الأدنى فى تلك العهود المبكرة، كما أنها تختلف باختلاف شخصيات الكتاب ووجهات النظر التى انطلقوا منها. فهناك مثلا الرحلة التى قام بها عام ١٢١١ أحد كبار رجال الدين واسمه ڤيلبراند فون أولدنبورغ على رأس بعثة ديبلوماسية من الامبراطور الألمانى أوتو الرابع إلى ملك القدس الأرمنى ليو بخصوص الوراثة على عرش القدس. فالى جانب وصف مدن سوريا وفلسطين وكل من الاماكن المقدسة بالتفصيل يبدى اولدنبورغ إلى جانب مهمته الديبلوماسية اهتماماً خاصاً بدراسة الشئون العسكرية فى الشرق، مما يتضح من وصفه الدقيق، الفريد من نوعه فى تلك الفترة، للتحصينات العسكرية فى سوريا. فتدهشه صور. أقوى قلعة للصليبيين آنذاك. بتحصيناتها سواء من البحر أم من البر. خلافاً لصيدا التى كان الألمان قد دمروها فى حملة عام ١١٩٧ وأبادوا حصونها شر إبادة. واشتد اعجاب أولدنبورغ ورفاقه عندما شاهدوا قصراً فى بيروت. أرضه مبلطة بالمرمر وجدرانه مغطاة بالرسوم الرائعة، وحدائقه غناء تتوسطها النوافير. وكانت القدس بأيدى المسلمين آنذاك؛ ورغم أنه كان يسمح للنصارى بزيارة كنيسة القيامة والاماكن المقدسة بصحبة رسول سلطانى كان يأخذ ضريبة عن كل شخص. إلا أن أولدنبورغ لم يستطع أن يخفى استياءه وشعوره بالمذلة والخضوع تجاه هذا الحال. وكانت خاتمة حجه زيارة إلى نهر الاردن عبر بيسان وأريحا حيث شوهدت كنيسة مدمرة فى المكان الذى قام يوحنا بتعميد السيد المسيح فيه. وعندما أراد الحجاج الاستحمام بماء الاردن؛ أثاروا بذلك سخرية البدو المحيطين بهم الذين راحوا يعكرون الماء ويقذفونه بالحجارة.

هذه رحلة يمكن أن تكون نموذجاً لعديد من الرحلات أثناء حكم الصليبيين فى سوريا وفلسطين. ولكن عندما عاد المسلمون فاستعادوا البلاد قلت بطبيعة الحال حركة الأسفار الأوروبية فى المنطقة طيلة قرن كامل. فلما أطل القرن الرابع عشر، وتغير موقف الحكام المسلمين وأصبحوا اكثر تسامحاً تجاه الحجاج المسيحيين عاد سيل الرحالين يتدفق إلى البلاد المقدسة من جديد. ومن أطرف هذه الرحلات تلك التى قام بها ڤيلهلم فون بولدنزيله، من مدينة مندن بوستفاليا، تكفيراً عن نذر قطعه على نفسه وتقرباً من الرب، والتى صورها فى رواية ممتعة للغاية تفوق بما تمتاز به من دقة الوصف وقوة الملاحظة كثيراً من قصص الرحلات المعاصرة لها.

بدأ بولدنزيله مع مرافقيه رحلته عام ١٣٣٢ من إيطاليا إلى آسيا الصغرى حيث تعرف على ساحلها وعلى جزر الأرخبيل الهامة ثم وصل ليلة عيد الميلاد إلى صور التى وجد ميناءها فى حراسة المسلمين، وجميع تحصيناتها المسيحية مدمرة تدميراً تاماً. وكانت خطته أن يزور مصر أولا، ثم يعود إلى الأراضى المقدسة. ولذا فقد عبر الصحراء من غزة إلى القاهرة على ظهر الجمال فى سبعة أيام. وفى رواية الرحلة يسترسل رحالتنا فى وصف مصر وتاريخها القديم ونيلها الخالد، «نهر الفردوس»، الذى يخصب البلاد كل عام ويصب بالقرب من الاسكندرية. ولذا فالامطار نادرة فى مصر، الغنية بالحيوانات والنباتات

---

١) انظر إلى المراجع فى نهاية المقالة.



الخريطة التى رسمها الإصطخرى (توفى عام ٩٣٤) فى «كتاب الأقاليم» فى نسخة مؤرخة عام ١١٩٣. ولا شك ان العرب قد حققوا نتائج هامة فى علم الجغرافية لعبت دوراً كبيراً فى توجيه المشتغلين بهذا العلم فضلا عن السياح الأوربيين المهتمين بزيارة الشرق. Safari Verlag, Berlin.
نشكر دار نشر سافارى ببرلين لاعارتها لنا كليشه هذه اللوحة.

الغربية. ويذكر أنه رأى فى القاهرة ثلاثة أفيال حية يصف شكلها وخراطيمها وأنيابها بدقة. كما أنه شاهد زرافة بلغ عنقها من الطول بحيث انها كانت تلتهم طعامها من سطح أحد البيوت المرتفعة. ولكن اكثر ما أدهشه فى القاهرة الاماكن التى يفقس فيها البيض بالطرق الاصطناعية. ويدهش صاحبنا لمنظر الاهرام التى شاهد عليها كتابات كثيرة بلغات مختلفة. وقال له بسطاء الناس إن الفراعنة كانوا يستخدمونها كخزانات للمؤونة. ولكنه اقتنع بعدم امكان صلاحيتها لذلك، إذ وجد باطنها عند انحداره إليه مليئاً بالحجارة. وتمكن بولدنزيله فى القاهرة من مقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى أسبغ عليه حماية خاصة وسلمه إذناً (فرمان) يوصى جميع رعاياه به خيراً، ويسمح له بزيارة الاماكن المقدسة، ويعفيه مع مرافقيه من دفع أية رسوم عن ذلك. وهكذا استطاع رحالتنا أن يتنقل مع حاشيته فى ربوع بلاد المسلمين بأمان واطمئنان اكثر منهما فى بلاد النصرانية، على حد قوله. فكان فى كل مكان يصل إليه يبرز إذن السلطان، فيقف المسلمون ويقبلون التوقيع ويضعونه على جباههم احتراماً. ثم يأمرون باحضار الطعام والشراب وتقديم الحراس والمرافقين. وكانت هذه التسهيلات حقاً امراً نادراً لم يكن رحالة القرون الوسطى ليحلم به.

وفى مسيرة ثلاثة عشر يوماً وصل بولدنزيله سوريا. وفيها جذب البدو اهتمامه، فيصفهم بأنهم قوم رحل يقطنون الخيام ويحملون التروس والرماح ويمتطون الجمال ولا يعبأون كثيراً بالسلطان ولا بتوقيعه، وان بوسعهم لو اتحدوا أن يحتلوا مصر وسوريا معاً. وعند بلوغ القدس لوحظ الجفاف الذى يحيط بالمدينة، فكانت مشكلة الماء تحل بخزانات يجمع فيها ماء المطر وينقل بقناة من الحبرون إلى المدينة. ورأى بولدنزيله أن المسلمين كانوا ينزعون احذيتهم عند دخول قبة الصخرة، حيث كان يقوم معبد سليمان، وانهم كانوا يقبلون الأرض مرات عديدة (قاصداً الركوع)، وكان يتمنى الدخول إلى المسجد أيضاً لولا منع ذلك على النصارى. وعومل بولدنزيله فى القدس أيضاً بعناية خاصة، حتى ان امير المدينة ترك له مفاتيح كنيسة القيامة حيث أقام رجال الدين من حاشيته القداس، وتناول بعض اتباعه القربان المقدس. وبعد انتهاء القداس رفع اثنين من رفاقه إلى مرتبة الفروسية، وهذه اول إشارة إلى بدء التقليد فى منح لقب فروسية القبر المقدس. وراعى الأمير العربى هذه المراسيم حتى أنه لم يكن ليسمح لأحد بدخول الكنيسة دون موافقة بولدنزيله. إن ما كتبه رحالتنا هذا عن فلسطين ومدنها يفيض بالعاطفة الدينية بسبب ما كانت تثيره هذه الاماكن المقترنة بقصص العهد الجديد فى نفسه من أحاسيس. سواء فى بيسان أم أريحا أم غور الاردن أم الناصرة. وعندما وصل ورفاقه دمشق أدهشته المدينة بموقعها الجميل ونشاط حركتها وكثرة سكانها. ويصف الحركة التجارية المزدهرة فيها ويذكر القوافل القادمة من بغداد والهند والمحملة بالحجارة الكريمة وأصناف الحرير والتوابل والعطور، والمتجهة بهذه السلع غرباً إلى موانئ البحر الابيض السورية. وهو يشهد فى روايته على براعة الصناعات اليدوية الفنية فى دمشق، كما يشير بالثناء إلى مهارة أطبائها. واجتاز بولدنزيله جبال لبنان حتى بلغ الساحل بعد ركوب ثلاثة أيام. وقد أثارته مناظر لبنان الساحرة واصابه العجب لوفرة خيراته وتنوع ثرواته الزراعية، فأراضيه حسنة الفلاحة وجباله غنية بالينابيع، تكسوها أشجار الأرز والصنوبر. وأغلب سكانه من الموارنة الذين، على حد قوله، ينتظرون الحملة الصليبية التالية لمحاربة المسلمين إلى جانب الفرنجة. ومن بيروت ركب بولدنزيله وحاشيته متن البحر وعاد أدراجه إلى اوروبا.

لقد أثارت قصة بولدنزيله منذ صدورها اهتماماً شديداً. فقد كانت شخصية الرحالة مثيرة فى غرابتها وتنوع جوانبها. وفى روايته أيضاً تمتزج العاطفة الدينية الجياشة امتزاجاً عجيباً بفضول المؤلف وحبه للمغامرة وابتهاجه لمشاهدة عالم جديد غريب .وقد بلغ من قوة تأثير اسلوبه الوصفى أن السير جون مانديفيل، الرحالة الانجليزى الوسيطى الذى تثور التساؤلات حول حقيقة شخصيته، نقل اجزاء كبيرة من قصته نقلا حرفياً وأدمجها فى روايته المتنازع عليها حتى اليوم، التى ظلت اكثر من قرن كامل أحب قصة أسفار فى العالم الغربى اطلاقاً. وقد توفى الفارس الرحالة بولدنزيله عام ١٣٣٩ فى كولونيا، قبل أن يتمكن من تحقيق تصميمه على دخول نظام الرهبنة.

وممن تأثر برواية بولدنزيله واستند إلى ماورد فيها من معلومات عن الشرق الادنى حاج وستفالى آخر هو لودلف فون زودهايم، كان قد قضى خمسة اعوام متتالية فى الشرق وزار بيت المقدس عام ١٣٣٦. وقد كتب هذا روايته باللاتينية ثم ترجمت إلى الألمانية وطبعت عام ١٤٦٨. ولم تكن غايته أن يعطى وصفاً مفصلا لأسفاره وانما قصد أن يكون كتابه على نسق دليل سياحى يعطى الحجاج

تعليمات وارشادات مفيدة حول كيفية الاستعداد للرحلة. وافضل الطرق، ووصف البلاد الواقعة عليها. وقد اشتهر كتابه حتى اعتبر افضل مرجع سياحي للبلاد المقدسة فى القرن الرابع عشر.

وفى عام ١٤٨٣ قامت جماعة من الألمان يرأسها زعيم دينى من ماينتز يدعى برنارد فون برايدنباخ بالحج إلى الأراضى المقدسة تكفيراً عن الذنوب مع رحلة طويلة فى ربوع الشرق طبعت تفاصيلها عام ١٤٨٦ باللاتينية فى كتاب اجتاحت شهرته جميع اوروبا آنذاك[٢]. وكانت جماعته تتألف من نبيلين شابين هما الفارس فيليب فون بيكن والكونت يوهان فون زولز، بالإضافة إلى اثنى عشر فارساً وباروناً آخرين، والرسام ايرهاردت رويڤتش، الفنان بالنقوش الخشبية، وخمسة قسس ورهبان، ورحالة خبير هو فيلكس فابرى، مع عدد من المترجمين والخدم والطهاة والاتباع. وبعد الاستعدادات الواسعة، كان من العسير على افراد هذه المجموعة الكبيرة أن يبدأوا الرحلة الشاقة سوية دفعة واحدة. لذا فقد انقسموا إلى فئات غادرت المانيا فى مواعيد مختلفة واتفقت على اللقاء فى البندقية. ثم اقلعت سفينتهم من البندقية، وبعد رحلة فى البحر المتوسط دامت عدة أسابيع وصلوا يافا فى أول تموز (يوليو)، ثم فرض أهل المدينة عليهم عزلا صحياً لمدة اسبوع، سمح لهم بعده بالسفر إلى القدس. وبعد الزيارات التقليدية إلى كنيسة القيامة وبيت لحم وبيسان ونهر الاردن، انقسمت الجماعة ثانية إلى عدة فئات عاد أغلبها إلى يافا، بينما اتجه برايدنباخ واثنان من رفاقه إلى دير القديسة كاترين فى جبل سيناء، ومنه انحدروا إلى البحر الأحمر حتى وصلوه فى الثالث من تشرين الأول (اكتوبر). وفى القاهرة حصل لهم حادث غريب، فقد ظنهم بعض تجار الرقيق عبيداً فارين، فقبض هؤلاء عليهم وأرادوا بيعهم لولا أنهم نجحوا فى مقابلة السلطان الاشرف قايتباى، سلطان مصر، الذى أمر بالافراج عنهم. وفى القاهرة كذلك أدهشتهم «معجزة» فقس البيض بوضعه فى روث الحيوانات الحار داخل افران خاصة. وهذا أمر ظل يذكره الرحالون الاوروبيون باستمرار حتى اواخر القرن الثامن عشر. ثم انتقلت جماعتنا هذه منحدرة نهر النيل عبر رشيد إلى الاسكندرية حيث مات الكونت فون زولز الشاب من وعثاء السفر وعناء الترحال. وفى الثامن من كانون الثانى (يناير) عام ١٤٨٤ وصل برايدنباخ البندقية.

٢) انظر الى المراجع فى نهاية المقالة.

إن الكتاب الذى يضم قصة هذه الرحلة لا يحتوى على تسجيل وصفى دقيق لمراحلها مع صور من رسم رويڤتش فحسب، وانما يقدم وصفاً مفصلا للأراضى المقدسة وتعليقات وملاحظات طريفة عن عادات وتقاليد البلاد. مع ترجمة لحياة النبى محمد ومختصر للتشريع الاسلامى وقاموس موجز للكلمات والتعابير اليومية العربية بالاضافة إلى ارشادات متنوعة للحجاج. ونصائح عملية لاتقاء ومعالجة الامراض المحلية. وقد نالت الرسوم التى حفرها رويڤتش شهرة واهتماماً اكثر من النص المخطوط. فهناك خريطة مفصلة للاراضى المقدسة وصور للحيوانات المختلفة كوحيد القرن والزرافة والتمساح وقرد هائل لم يستطع الرحالون أن يعرفوا اسمه. وهناك رسوم اخرى توضح الأزياء التركية والعربية واليهودية واليونانية والسريانية والهندية. كما أن صورة رويڤتش المحفورة بالخشب التى تمثل كنيسة القيامة هى اول صورة مطبوعة لهذه الكنيسة اطلاقاً. وقد احرز الكتاب نجاحاً كبيراً عند صدوره حتى ترجم إلى الألمانية والانجليزية ولغات اخرى. واستخدمه واستند اليه عدد كبير من الرحالين الاوروبيين فيما بعد. واستقى عدد من الرسامين المعروفين مواضيعهم من رسومه. ويذكر لامبرت[٣] أنه عندما فتح قبر برايدنباخ فى كاتدرائية ماينتز عام ١٥٨٢ وجدت جثته محفوظة على أحسن حال بفضل مواد التحنيط التى كان قد احضرها معه من الاسكندرية إلى ألمانيا.

وقبل أن نختتم ذكر هذه المجموعة من رحالى القرون الوسطى نود أن نضيف إليها رحلة نبيل ألمانى ظلت قصته موضع تساؤل وشك حتى اليوم، رغم صدق ودقة مقاطع كثيرة منها. أما هذا الرحالة فهو آرنولد فون هارف، نبيل من يولش بالقرب من كولونيا، قام برحلة لمدة ثلاثة اعوام كتب قصتها بلهجة الراين الأسفل واكسبته شهرة كبيرة. غادر فون هارف كولونيا عام ١٤٩٦ بدافع زيارة الاماكن المقدسة، ولكن الحماس الدينى ليس وحده هو الذى حفزه إلى السفر والتجوال، بل إن حبه للاكتشاف والبحث والتنقيب كان له نصيب كبير فى ذلك أيضاً. وبعد أن وصل إلى البندقية أبحر إلى الاسكندرية ومضى إلى القاهرة، ومن ثم إلى جبل سيناء. وهو يودنا أن نصدق بأنه قطع شرقى شبه الجزيرة العربية كله إلى عدن. وأنه أبحر إلى سيلان حيث زار الهند ومدغشقر وجزيرة سقطرة.

٣) انظر الى المراجع.

وتسلق جبال القمر واكتشف منابع النيل، وأنه اتبع مجراه حتى عاد إلى القاهرة ثانية. ويزعم بعد ذلك أنه عاد إلى اوروبا عبر فلسطين وسوريا وتركيا. وفون هارف، ككثير من رحالى القرون الوسطى، يمكن أن يصدق فى أجزاء من اقواله ولكن ليس فى كل ما يرويه. فقصته تحتوى على الكثير من الخرافات ووحوش البحار العجيبة والجنيات المحاربات. وهناك أحد احتمالين : فاما أن نرفض مغامرة فون هارف عبر شرقى الجزيرة العربية، وأن نفترض انه مضى من مصر إلى فلسطين رأساً، ولكنه فضل ابتكار قصة رحلة خيالية تعيده إلى مكان يمكنه، ابتداء منه، أن يسرد حقائق جديرة بالتصديق. أما الاحتمال الثانى فهو أن نصدق زيارته للجزيرة العربية، وفى هذه الحالة لابد لنا من الافتراض بأنه عند بلوغه عدن عاد إلى مصر عن طريق لم يذكرها فى روايته، مفضلا أن يبتكر طريقاً أطول، بحيث أنه لم يضف إلى رحلته شيئاً جديداً فحسب، بل أخفى جزءاً منها فى الوقت نفسه أيضاً. ولأسباب فصلها بيكنجهام فى مقال له حول أوائل الرحلات إلى الجزيرة العربية،٤) يميل المرء إلى تصديق الاحتمال الأول، والقول بأن فون هارف لم يزر الجزيرة العربية ولا الهند ولا أعالى النيل. فالى جانب اسماء مدن لا وجود لها فى الجزيرة العربية، فان وصفه لمكة غريب يبعث على الريبة الشديدة فى صدقه. فبالرغم من سفره علانية كنصرانى، يزعم فون هارف أنه رافق الحج مع عدد من النصارى واليهود حتى بلغوا مشارف المدينة. وإنه لمن المستبعد جداً أن يسمح لغير المسلم بمرافقة الحجاج بعد الاحرام، فكيف بمشاهدة مكة إطلاقاً. ويود فون هارف أن يقنعنا بأن مكة «مدينة خصبة تحيط بها الحدائق الغناء ذات الثمار الوفيرة النادرة» وأنه كان يجرى إلى جانبها «نهر كبير جميل» يصب فى البحر الأحمر. أما المسجد، على حد زعمه، فعلى ارتفاع يفوق أى مسجد آخر فى العالم. ويزعم رحالتنا أنه تقدم وجماعته إلى الكعبة «الواقعة فى نهاية الجهة الشرقية» من ساحة المسجد «حيث يقوم ضريح النبى». ويمكن الاعتقاد بأن فون هارف كان قد سمع أو قرأ وصفاً للمدينة المنورة وغيرها من مدن الجزيرة العربية، فاختلط الأمر عليه، وجعل ذلك وصفاً لمكة. ولكن رغم اجزاء روايته المشكوك فى صحتها، إلا أنه، حيث يصف أماكن زارها بالفعل، يثبت أنه عميق المعرفة دقيق الملاحظة خليق بالثقة. وباحتكاكه بأهل مصر وفلسطين من التجار وباجتماعه بالألمان الذين رآهم منتشرين فى كل مكان على اختلاف مهنهم، فقد جمع فون هارف معلومات لا يستهان بها عن الشرق الأدنى، بحيث ان وصفه لحياة القاهرة ومشاغلها وأوجه نشاطها وتفاصيل ما كتب عن مصر يفوق كل ما رواه معاصروه. وندرك من روايته بكل دقة أحوال الطرق والسفر فى اوروبا والشرق فى تلك الآونة. إذ يولى فون هارف اهتماماً خاصاً بظروف السياحة ويدرج فى كتابه كل ما يحتاج إليه المسافر من كلمات وعبارات شائعة وارقام بلغات البلاد التى يمر بها. كما أنه اولى عناية خاصة بالرسوم التى تبين الملابس والأزياء الوطنية المختلفة.

من كل ما تقدم ندرك أن الدافع الدينى الذى اشتد بانتشار الإسلام ظل حتى القرن الخامس عشر هو السائد فى حركة سياحة الاوروبيين، بما فيهم الألمان، إلى منطقة الشرق الأدنى. وحتى ذلك الحين ظلت معرفة الاوروبيين عن بلاد العرب مقتصرة على سواحل سوريا والأراضى المقدسة ومصر، كما أن طرق السفر البحرية والبرية ظلت إلى حد بعيد هى نفسها، تطرق دون تغيير اساسى عبر الأجيال. ولكن نتيجة لاكتشاف الطريق البحرى إلى الهند حول افريقيا فى القرن الخامس عشر، والاحتكاك بمراكز تجارة الهند والشرق الاقصى الغنية، فقد أخذت الدول البحرية الأوروبية فى التنافس على سيادة المنطقة، فقامت مستعمرات برتغالية، واعقبتها انجليزية وهولندية وفرنسية فى الهند وما حولها، ولعب الدافع التجارى دوره فى زيادة أهمية البحر الأحمر وبلاد الشرق الأدنى كجسور موصلة بين اوروبا والهند. وبرزت أهمية سواحل الجزيرة العربية جميعاً فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأصبحت موضع تنافس شديد بين القوى الاوروبية لأهميتها بالنسبة للتجارة وحماية السفن والطرق التجارية. وكان جميع الاوروبيين الذين ارتادوا سواحل الجزيرة العربية أو اخترقوها خلال هذين القرنين إما مسلمين ارتدوا عن المسيحية، أو غزاة أو رسلا متنكرين كانوا يحملون أنباء هامة إلى اوروبا، أو بحارين انتشلوا من سفن محطمة، أو أسرى معارك بحرية. ونظراً لعجز الألمان آنذاك عن الخوض فى ذلك المعترك التجارى، فانه لم يكن لهم نصيب يذكر مما كتبه اولئك الرحالون الاوروبيون المغامرون أمثال فارتيما وألفونسو دالبوكرك والانجليزى مدلتون والفرنسيين باربير ودى لاغريلوديير عن الجزيرة العربية من روايات ومذكرات كان لها اثر كبير، رغم ضحالة محتواها العلمى، فى اثارة الفضول لمعرفة المزيد عن هذه البلاد وكشف

٤) ذكر مقاله مع المراجع.

النقاب عن جغرافيتها ومدنها وسكانها وتاريخها الطبيعي. وإذا حرم الألمان من أي نصيب تجاري في المحيط الهندي والبحر العربي، إلا أنه كتب لواحد منهم أن يكون الرائد في تأليف أول كتاب علمي عن اليمن والساحل الغربي للجزيرة العربية في اوروبا، وأن يكون العضو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من بعثة استكشافية علمية هي الأولى من نوعها إلى بلاد العرب، ليقوم بتسجيل هذه الرحلة. وليصبح كتابه حجر الأساس الذي بنى عليه كل من اعقبه من رحالين ومكتشفين اوروبيين في ربوع شبه الجزيرة العربية.

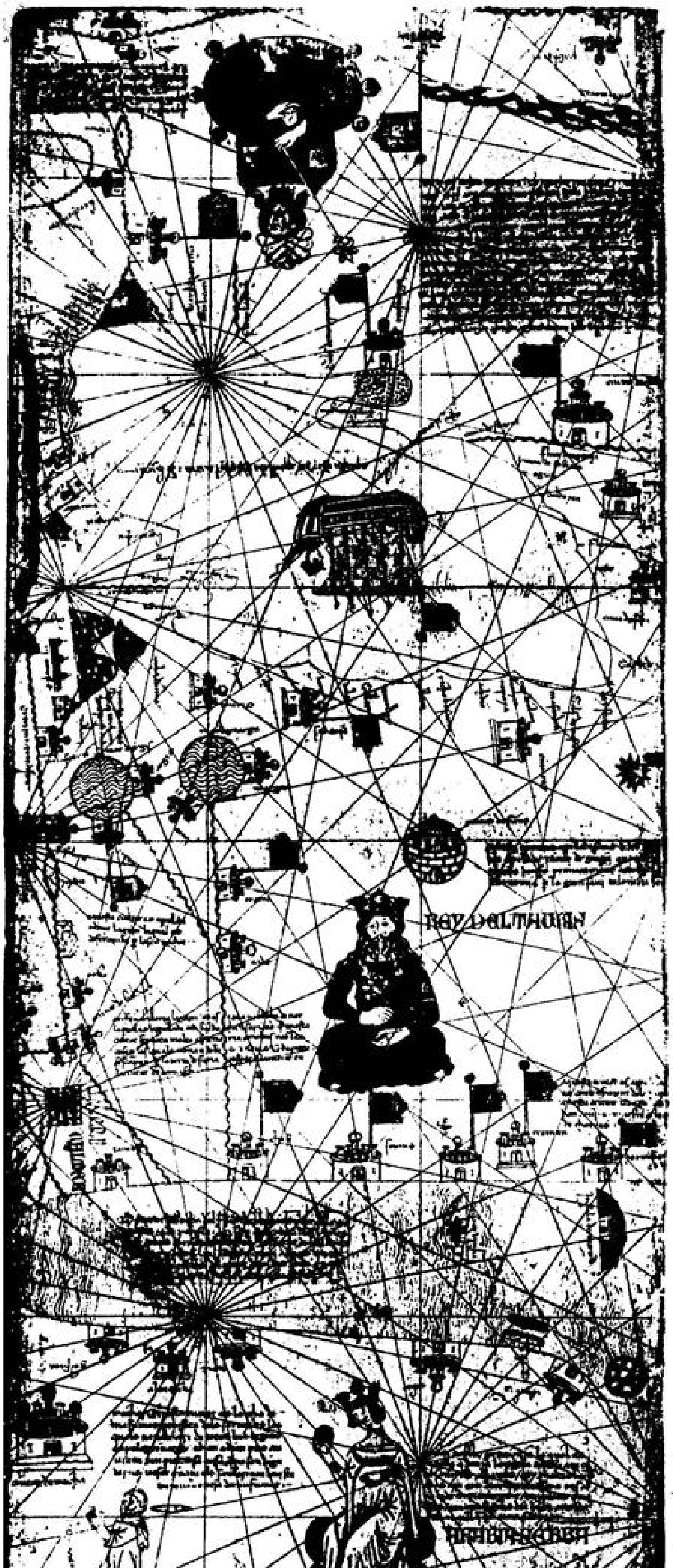
في منتصف القرن الثامن عشر اقترح استاذ اللغة العبرية في جامعة جوتنجن الألمانية ومستشار البلاط الدانمركي آنذاك ميشائيلس على ملك الدانمارك فريدريك الخامس ايفاد بعثة علمية إلى شبه جزيرة العرب للقيام بأبحاث جغرافية واخرى تتعلق بالكتاب المقدس. واختير اعضاء البعثة كل حسب اختصاصه بحيث يتم التعاون فيما بينهم جميعاً دون رئاسة أحد منهم. أما أعضاء البعثة فكانوا: بيتر فورسكال، عالم نباتي، وكريستيان كرامر، جراح وعالم حيوان، وفريدريك فون هافن، عالم لغوي ومستشرق. وجيورج فيلهلم باورنفايند، رسام وفنان، وخادم سويدي يدعى برغ غرن، وأخيراً كارستن نيبور، مهندس الماني ولد عام ١٧٣٣ بالقرب من هانوفر، ودرس المساحة والرياضيات في جامعة جوتنجن. وشاء القدر أن يكون الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من أعضاء البعثة، وعاد بمفرده ليكتب التفاصيل نيابة عن رفاقه الراحلين.

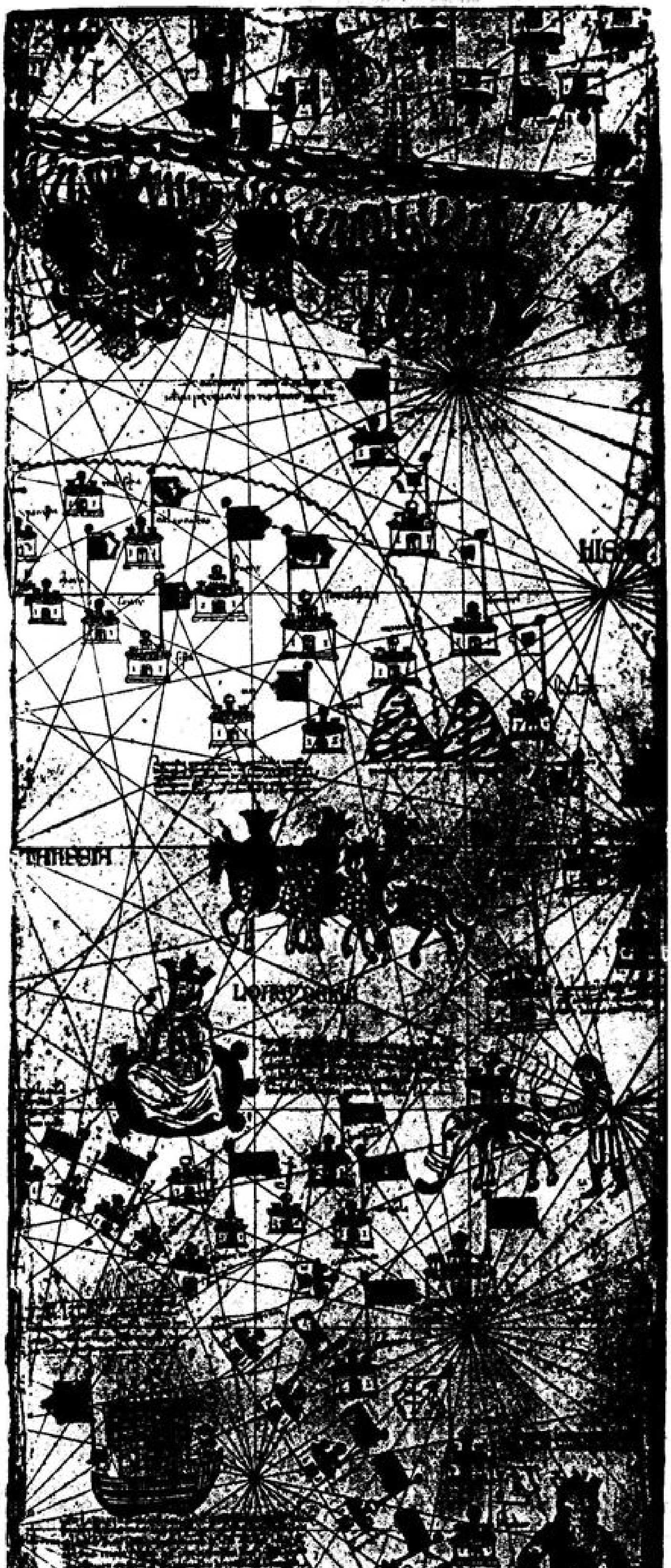
غادرت البعثة كوبنهاجن عام ١٧٦١ واتجهت إلى القسطنطينية ومنها إلى الاسكندرية فالقاهرة. ثم ابحرت من السويس على البحر الأحمر عابرة ينبع حتى بلغت جدة. وكانت الرحلة لا تخلو من الخطر بسبب الصخور المرجانية والنتوءات الكثيرة وازدحام السفينة بالمسافرين. ويسجل نيبور أن التحصينات القديمة التي بنيت في جدة لمقاومة البرتغاليين كانت مدمرة، وكانت بيوت جدة معظمها من الخشب وينقل الماء اليها على ظهور الجمال من خزانات على التلال المجاورة. ولم يكن ميناء البلدة اكثر من سوق تجارية بين الهند ومصر، يسيطر عليها الانجليز. وبعد انتظار شهرين في جدة، حيث عومل الرحالون الاوروبيون بكثير من الود والتساهل، ظهر في الميناء مركب متجه إلى الحديدة، فاستقلوه رغم صغر حجمه وغرابة شكله. وبعد ستة عشر يوماً بلغوا لحيا، وكان حاكمها رجلا مهيباً، مستقيماً، حسن الطباع. وأخفى الرحالون عن حاكم لحيا غايتهم من استكشاف اليمن. واخبروه أن وجهتهم مخا حيث سيلتحقون بسفينة انجليزية إلى الهند. كانت لحيا بلدة فيها عدد قليل من البيوت الحجرية. أما أغلبها فقد بني بالطين. بينما نمت الأعشاب الكثيفة على سقوفها. وكان اقرب مكان لماء الشرب يبعد ثلاثة أميال عن البلدة البائسة في مينائها. والتي تعيش بالدرجة الأولى على تجارة القهوة. وكانت بلدة بيت الفقيه المركز الداخلي لتجارة القهوة في طريقها من جبال اليمن إلى لحيا والحديدة ومخا. وكانت الحديدة ذات مرفأ صغير افضل بقليل من مرفأ لحيا. أما مخا فكانت الميناء الرئيسي لتجار القهوة القادمين من مصر وسوريا وايران وشمالي افريقيا.

وعندما زار أعضاء البعثة بيت الفقيه استقبلهم الحاكم المحلي بكرم وود، وسمح لهم بالتنقل في كل مكان. فالتقوا هناك بعدد من المثقفين العرب الذين لم يكن منظر الاوروبيين امراً غريباً عنهم. ومن بيت الفقيه قاموا بجولات عديدة عبر اليمن، فزاروا تعز وصنعاء والقرى الجبلية. ووجدوا أن السياحة في اليمن اقل خطراً منها في أي بلد آخر. ولتجنب اللصوص واستبعاد الشكوك اتخذ نيبور زي رجل فقير بسيط وامتطى حماراً وراح يجول في ربوع تهامة حتى تعرف إلى جميع بقاعها. وفي المرتفعات الداخلية اكتشف مزارع القهوة، حيث كانت الصخور البركانية تستخدم كجدران داعمة لمزارع القهوة التي جعلت شرفات مدرجة. ورغم ثروة البلاد بزراعة القهوة، إلا أن هذا المنتوج الزراعي كان عاجزاً عن كفاية كثير من القرى التي كانت تضمحل تحت وطأة الفقر وسوء الحال، والتي كانت الذرة تشكل الطعام الرئيسي لسكانها.

وفي مخا اسيئت معاملة رحالينا في بادئ الأمر، ثم أحسن اليهم بعد أن نجح كرامر في معالجة حاكم المدينة. ويصف نيبور تجارة مخا التي يحتكرها الانجليز، كما يذكر الامتيازات التي كانت تمنحها لهم سلطات الجمارك والمكوس خلافاً لغيرهم من التجار العرب والأتراك والهنود. وخلال فترة اقامتهم في مخا فجعوا بموت فون هافن بعد مرض شديد ثم دفن في مقبرة الاوروبيين هناك. ثم غادرت الجماعة مخا تلبية لطلب الإمام بالمثول بين يديه في صنعاء. وفي منتصف الطريق مات فورسكال بعد مرض شديد أيضاً، بحيث خسرت البعثة بهاتين الضحيتين أفضل مستشرق وأبرع نباتي بينهم. ولما وصل الرحالون صنعاء استقبلهم الامام بالترحاب والود. ويصف نيبور القاعة الكبيرة ذات السقوف المقوسة حيث كان الامير يجلس

الخريطة الخامسة في «الأطلس القتالاني» الذي رسمه «كريسكس» في مدينة پَلما على جزيرة مايوركا الإسبانية عام ١٣٧٥. Safari-Verlag, Berlin.
نشكر دار نشر سافاري لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.





متربعاً على الوسائد الوثيرة، وعليه ثياب خضراء فاخرة موشحة بالذهب. وبعد تقبيل يديه وأطراف ثوبه، اخبره الرحالون بأنهم فى طريقهم إلى الهند وانهم مروا ببلاده لينقلوا وصف ثروتها ورخائها وأمنها إلى ابناء بلادهم. وعندها سمح لهم الامام بالبقاء ما شاءوا. ولكنهم لم يمكثوا اكثر من عشرة أيام حاولوا أن يجمعوا فيها اكثر ما يمكن من معلومات عن المدينة وما جاورها. ويذكر نيبور أن صنعاء كانت محاطة بسور من الطابوق وأنه بنيت اقنية فى الجبل المجاور لنقل المياه الوفيرة إليها. وكان فى المدينة سبع بوابات، واثنا عشر حماماً وعدة قصور فخمة. وكان السكان أقل عدداً مما كان مظهر المدينة ينم عليه لأول وهلة، إذ كانت الحدائق تغطى معظم مساحتها المترامية الأطراف. وبنى بعض البيوت بالحجارة، بينما بنى معظمها بالطابوق المجفف بحرارة الشمس. ولم تكن الاخشاب المستخدمة فى النجارة وفيرة بل كانت تجلب من مكان يبعد بمقدار رحلة ثلاثة أيام من صنعاء. ولكن الفواكه كانت وفيرة، فمن الاعناب وحدها كان يوجد عشرون صنفاً بحيث كانت تصدر كميات كبيرة من الزبيب. ويصف نيبور كثيراً من مظاهر المدينة الاجتماعية بحيث قدم فى ذلك معلومات جديدة تماماً بالنسبة لابناء عصره. كوصفه لعادات اهل البلد وحياتهم اليومية واصحاب الحرف اليدوية الذين كانوا يعملون فى الطرق العامة، وخانات المسافرين والتجار، والحمامات العامة، ومازالت الصورة الزاهية التى رسمها نيبور لصنعاء تمتع القارئ حتى اليـوم .

وعندما غادرت الجماعة صنعاء بعث الامام لكل من افرادها بمجموعة من الملابس الوطنية كهدية منه، كما جهزهم برسالة إلى حاكم مخا ليمدهم ببعض المال. ويذكر نيبور ان الامام كان من السخاء والجود تجاه الغرباء بحيث كان الأتراك كثيراً ما يستغلون طيب معدنه فيمكثون الشهور الطويلة فى صنعاء يتسكعون وينفقون على حسابه. وتحت وطأة شمس آب مرض نيبور وكرامر وباورنفايند فى طريقهم إلى مخا. وحين غادروها واتجهوا إلى الهند مات باورنفايند وبرغ غرن أثناء الطريق، وفى بومباى مات كرامر بعد بضعة شهور. وهكذا فقد فرض مناخ اليمن الحار ضريبته على أرواح الجميع باستثناء نيبور الذى ظل أربعة عشر شهراً فى بومباى عاد بعدها إلى اوروبا عبر مسقط وخليج البصرة والعراق وسوريا. وكان من نصيب نيبور، الذى قاوم حتى النهاية، وأبدى نشاطاً وهمة وقوة احتمال لاحد لها خلال الرحلة كلها، أن يكتب قصة هذه الحملة الاستكشافية وحده. وقد حاول بنجاح كبير أن يسجل الاكتشافات التى قام بها جميع افراد البعثة، لا مغامراته وحدها فقط، لا بل إن قصته تكاد تخلو من أى طابع شخصى يتعلق بذاته هو. ويمكن اعتبار كتابه خلاصة نتائج هذه البعثة وتنصهر فيه اعمال جميع اعضائها، رغم أن البعثة انتهت قبل موعدها المرسوم ولم تحقق كل المهمات التى كان ملك الدانمارك قد حددها لهـا .

وكجميع كتب رحلات القرن الثامن عشر، فان رواية نيبور حافلة بكل ما يمكن تسجيله من ملاحظات ومعلومات كانت تعتبر ذات أهمية لإنسان ذلك القرن، الذى يدعى بحق عصر التفتح العقلى. فيحتوى كتابه على وصف كل ما يمكن أن تقع عليه عين اوروبى متعطش للمعرفة، كما أنه يحاول الجواب على كل ما يدور برأسه من اسئلة : فمن وصف عام لمصر ومدنها وسكانها وتجارتها، مع تفاصيل ممتعة عن آلات الرى والفلاحة والطواحين وعصارات الزيت وأفران تفقيس البيض، إلى وصف حياة أهل مصر وأزيائهم ومباذلهم ولهوهم فى ساعات الفراغ، إلى وصف عام لموانئ الجزيرة العربية وحركة تجارتها النشيطة، وبحث مناخها وجغرافيتها وسكانها، وتعليقات عن الدين الإسلامى ومذاهبه وتعريف بالعرب الحاضرة والبدو وعاداتهم وتقاليدهم. ولكن ما يميز كتاب نيبور عن أمثاله من كتب الرحلات فى عصره أن الصفة الغالبة فى اسلوبه هى روح البحث العلمى المجرد عن التحيز والحكم المسبق، فعقله المتزن، وتفكيره الهادئ الذى لا يعرف التغرض لم يؤديا به إلى التسرع فى اصدار احكام سطحية حول البلاد وسكانها. ولعل لأصله الريفى الألمانى، والغاية العلمية من رحلته الفضل فى خلو لهجته من «الروح الامبريالية» التى تميز الكتب الاوروبية الاخرى عند الحديث عن العرب وسكان بلاد الشرق الأدنى. فهو لم يعتبر نفسه قطعاً أسمى من اولئك الذين جاء ليدرس أحوالهم، بل كان ينظر حوله بعين الفيلسوف الذى يرى الكل من خلال الجزء، ويدرك الأمر الأساسى من الحدث العارض. وكانت الصفات الانسانية العامة هى التى تجذب اهتمامه، وروح الانصاف هى التى تملى عليه احكامه، كما أنه لم يكن متأثراً بوهم التفوق الاوروبى العنصرى بحيث يحرمه ذلك من الشعور بالود تجاه شعب شرقى. ولذا فقد تكيف لتقاليد اليمن فوراً، دون أن يخطر على باله أن فى ذلك أى مس لكرامته ولسمعة بلاده؛

وانحنى لامام اليمن وقبل يديه كعاهل لا يقل فى بلاده قدراً عن الملك فريدريك فى الدانمارك .

لقد ظل كتاب نيبور لاكثر من قرن ونصف قاعدة ونموذجاً أصيلا لكل من يريد أن يعرف شيئاً عن بلاد العرب، ومرجعاً لكل رحالة جاب الجزيرة العربية بعده. وإن ميزته العظيمة كمرجع علمى تعود بالدرجة الأولى إلى شدة نيبور فى ضبط نفسه وكبح جماحها. وان هذه الموضوعية التى تميزكتابه تملأ القارئ كذلك بالثقة فى صدق ودقة ملاحظات المؤلف وتعليقاته. وقد ثبت صدق هذه الملاحظات أمام امتحان الأجيال القادمة من الرحالين بحيث يحار القارئ فى ايهما يمتدح أكثر : الدقة والصدق فى وصف ما رآه نيبور بعينه، أم التمحيص والصحة فى ذكر ما جمعه سماعاً اثناء تحرياته الشخصية عن البقاع التى لم يتمكن من زيارتها بنفسه. فقد كانت مهمته ان يخبر ملكه ومواطنيه عن الجزيرة العربية كلها، وليس عن اليمن وحدها فقط. وإذ كان ملماً بأهم المؤلفات العربية والأوروبية عن جغرافية الجزيرة العربية، فقد كان حريصاً على سؤال كل من كان يصادفه من العارفين وجمع كل ما كان يسمعه من أقوال المتعلمين المثقفين فى الخانات والمقاهى والأسواق العامة من جدة حتى صنعاء. وكان يقارن ويمحص ويدرس حتى ينتهى إلى القول الاكثر صدقاً والأقرب من الحقيقة؛ وإن ذلك القسم من كتابه الذى يتناول فيه بقاع الجزيرة التى لم يزرها بنفسه هو الاكثر قيمة، حتى يمكن القول بأنه قدم اوروبا من مرتبة التخمين إلى مرتبة المعرفة عن شبه الجزيرة العربية .

أما أهم ما سجله نيبور بعد تمحيص وتحقيق فهى الحركة الوهابية بعد أن أدرك ببعد نظره خطورتها وطاقتها النامية فى الجزيرة العربية. ولو اعتبرنا ملاحظاته عن الاسلام عموماً لوجدناها تميل إلى الايجابية اكثر من التجريح. فقد أدرك أن المبادئ الأساسية والأركان الأصلية للاسلام ليست عدائية بطبيعتها، وأن المسلمين عموماً لا يضطهدون اتباع الأديان السماوية الاخرى إلا إذا شعروا فى ذلك بتهديد مباشر لهم. وعرف أن النبى دعا إلى الايمان بدين اكثر بساطة فى الأصل مما أضاف إليه المفسرون والمؤولون فيما بعد من بدع وتعقيدات. وفى الكلام عن الحركة الوهابية يقول :

«منذ حين من الزمن نشأت حركة دينية جديدة ... أشعلت ثورة فى أرجاء شبه الجزيرة العربية، ومن المحتمل فيما بعد أن يزداد نفوذها فى البلاد ... فقد علم عبد الوهاب أن الله وحده هو الخليق بالعبادة والدعاء. كخالق الكون وسيد العالم ... واعتبر محمداً وعيسى المسيح وموسى وغيرهم من الأنبياء عند السنة مجرد عظماء يمكن قراءة سيرهم وتواريخهم مع التصحيح، وأنكر أن يكون أى كتاب قد كتب بالوحى الالهى. أو انزل من السماء على يد جبريل ... إن دين عبد الوهاب الجديد يستحق إذن ان يعتبر اصلاحاً للدين المحمدى، معيداً إياه إلى بساطته الأصلية. ولعله ذهب فى ذلك إلى ابعد مما فعله غيره من المصلحين ... »

ورغم أن نيبور لم يتعرض إلى ذكر آل سعود من الدرعية. الذين ناصروا المصلح الدينى وكتب لهم أن يلعبوا دوراً تاريخياً كبيراً، إلا أن ما ذكره عن الوهابية فى اوائل عهدها وعن سيرة المبشر بها محمد بن عبد الوهاب موضوعى وصائب إلى حد بعيد .

لقد صدر كتاب نيبور «رحلات خلال جزيرة العرب» بالألمانية عام ١٧٧٢ ثم ترجم إلى الفرنسية والانجليزية وظل المرجع الوحيد عن اليمن والجزيرة العربية لأكثر من نصف قرن. أما نيبور نفسه فقد عاد عام ١٧٦٦ وقوبل بما يستحقه من تكريم علمى واجتماعى وأصبح عضواً لعدد كبير من الجمعيات العلمية حتى مات عام ١٨١٥.

منذ صدور كتاب نيبور عام ١٧٧٢ حدثت امور كثيرة فى منطقة الشرق الأدنى مما زاد من فضول الاوروبيين لزيارة هذه البقاع ومعرفة المزيد عن قلب الجزيرة العربية. فقد تحققت نبوءة نيبور بشأن حركة الوهابيين التى أخذت تجتاح أرجاء الجزيرة العربية. ولا يتسع المقام هنا لسرد الوقائع التاريخية التى حدثت فى المنطقة حتى بداية القرن التاسع عشر بالتفصيل، ولكن يكفى القول بأن نهضة الوهابيين واستيلاءهم على مكة ثم تدخل الأتراك وحملة نابليون فى مصر وانتصار محمد على على مماليك مصر، كل ذلك ساعد على مضاعفة اهتمام اوروبا بالشرق الأدنى. وقد جاب عدد لا يستهان به من الأوروبيين بلاد العرب فى المنتصف الثانى من القرن الثامن عشر وكتبوا قصص رحلات لا تخلو من الأهمية. ولكن رحالة ألمانياً جريئاً جمع بين العلم والمغامرة يجذب اهتمامنا بوجه خاص، إذ يشكل حلقة الوصل بين نيبور المدقق الأمين، وبوركهارت الفقيه المتبحر فى علوم الدين الإسلامى واللغة العربية، وكاشف النقاب عن مكة والمدينة. أما هذا الرحالة فهو اولرش ياسبر زيتسن.

ولد زيتسن عام ١٧٦٧ فى قرية صوفينغرودن فى شمالى ألمانيا ودرس فى جامعة جوتنجن الطب والعلوم الطبيعية والهندسة وساهم منذ حداثة سنه بنشاط علمى كبير بحيث اشتهر اسمه فى اوروبا بفضل مقالاته العلمية فى حقول الحيوان والنبات والاقتصاد. وتوجت جهوده العلمية عام ١٧٩٥ بتعيينه عضواً فى جمعيتى الأبحاث الطبيعية فى برلين وڤيينا. ونظراً لصلاته الوثيقة بأهم علماء الفلك والطبيعة والجغرافيين والرحالين فقد صمم على القيام برحلة إلى الشرق وأفريقيا يقطع فيها الشرق الادنى حتى يصل افريقيا الغربية لاكتشاف منابع النيجر. وتعهد الدوق فون غوتا بحماس برعاية رحلته وتأمين كل ما يحتاج إليه من آلات فلكية وجغرافية. وفى ١٣ حزيران (يونيو) عام ١٨٠٢ غادر زيتسن منطقة ييفر إلى غوتا ثم ڤيينا. وعبر البلقان إلى القسطنطينية حيث مكث فيها ستة شهور. وبعد جولة فى جزر الأرخبيل اتجه فى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٠٣ إلى حلب ومكث فيها عاماً ونصف العام ليتعلم العربية. ثم سافر إلى دمشق ومكث فيها وقتاً طويلا وعبر جبال لبنان، ومر بصور، ثم انحدر إلى القدس ووصلها فى ٧ نيسان (ابريل) عام ١٨٠٦. وتجول فى ارجاء فلسطين ثم انحدر بعد عام إلى منطقة البتراء وعبر صحراء سيناء واجتاز السويس إلى القاهرة. وهنا مكث من مايس عام ١٨٠٧ حتى آذار (مارس) ١٨٠٩. وبعد جولة إلى الفيوم عاد إلى السويس وأبحر منها إلى جدة، ومضى منها إلى مكة التى بلغها فى ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٠٩ وبقى فيها مدة ليرسم خطة دقيقة للكعبة. وبعد الحج زار زيتسن صنعاء وعدن، ثم اتجه من الساحل إلى مرتفعات اليمن مع عدد من الجمال متنكراً كطبيب شرقى باسم الحج موسى. ولكنه قتل بالقرب من تعز ولم يعرف القاتل ولا سبب القتل حتى الآن. ولكن الغالب أنه لم يقتل طمعاً فى امواله وقافلته وانما بايعاز من إمام صنعاء الذى شك بحقيقة إسلامه والغرض من رحلته. وعلى اى حال فقد سبق لزيتسن أن مر بامتحان دقيق على أيدى الوهابيين فى مكة واثار الشكوك حوله هناك. وكان خطؤه أنه سافر عبر الطريق نفسها. وكان زيتسن اثناء رحلته قد بعث بعدة مخطوطات وقطع أثرية إلى غوتا وهى تشكل المخطوطات الأساسية للمتحف الشرقى هناك. كما أنه كان قد بعث برسائل وأبحاث نشرت فى عدة مجلات معاصرة. ولكن أغلب مذكراته وكتاباته وحاجاته فقدت، ولم ينقذ منها إلا ما كان قد أرسله إلى اوروبا. ومن هذه المذكرات يتضح مدى اهتمام زيتسن باستخدام رحلته لأغراض البحث العلمى، فهى زاخرة بالمعلومات القيمة فى حقول الحيوان والنبات والتعدين والزراعة والجغرافيا والتاريخ القديم. وقام عدد من العلماء باصدار مذكراته بعد موته بعدة أعوام[٥]. وهكذا فان المأساة التى حرمت اوروبا من اكتشافات عظيمة الأهمية ومن ثمرة ابحاث هذا العالم الجرئ المغامر فى الحجاز واليمن قد حرمته كذلك من بعض الشهرة التى كتب لها أن تكون من نصيب رحالة من أصل سويسرى عريق.

ولد يوهان لودفيج بوركهارت عام ١٧٨٤ فى لوزان ودرس منذ عام ١٨٠٠ فى لايبزغ، ومنذ ١٨٠٤ فى جوتنجن. ولما رفض الخدمة تحت راية نابليون فقد سافر عام ١٨٠٦ إلى انجلترا ودرس اللغة العربية والعلوم الطبيعية فى لندن وكامبردج بتعمق ومثابرة، استعداداً للقيام برحلة إلى الشرق واواسط افريقيا بتكليف من الجمعية الافريقية البريطانية. وفى ١٤ شباط (فبراير) عام ١٨٠٩ أبحر إلى مالطة ومنها إلى حلب متنكراً كتاجر مسلم هندى باسم الشيخ ابرهيم بن عبد الله. ليستطيع بذلك تبرير أية لكنة أجنبية قد تلاحظ فى نطقه العربى. واستغل اقامته فى سوريا (مابين حلب ودمشق) فى التبحر فى دراسة لغة وتاريخ وجغرافية بلاد العرب والإسلام. وكان يقنع سائليه من السوريين إذا طلبوا إليه أن يتكلم الهندستانية بالتحدث بالألمانية السويسرية التى تمتاز بالأصوات الحلقية. غير أنه تمكن اثناء اقامته فى سوريا من اتقان العربية والتحدث بها بطلاقة ونطقها على الوجه الصحيح. ومن التضلع فى اصولها، حتى أن بعض فقهاء حلب كانوا يستعينون بمعرفته احياناً على تفسير بعض النصوص والمسائل المعقدة. وسافر بوركهارت خلال الفترة ما بين ١٨١٠ و١٨١٢ إلى لبنان وحوران وشرقى الاردن. واهتم كثيراً بما شاهده من آثار وكتابات من عهد تراجان وماركوس اوريلوس. وأثناء طريقه إلى القاهرة فى منتصف عام ١٨١٢ اكتشف آثار البتراء القديمة مما أذاع شهرته بين علماء الآثار فى كل مكان فى العالم. وكانت خطة بوركهارت أن يبدأ رحلته الاستكشافية الافريقية من مصر فيلتحق بقافلة إلى فزان، وبعدها يواصل رحلته لاكتشاف منابع النيجر. وبينما كان ينتظر القافلة فى القاهرة، تمكن من مقابلة محمد على باشا. الذى أعجب بشخصيته وبعلمه، وأمده بتوصيات للقيام برحلة إلى النوبه. وإذ اعتبر هناك جاسوساً لباشا مصر فقد منع من مواصلة رحلته، فألتحق بقافلة كانت تسير كل عام

٥) ذكر الكتاب مع المراجع.

عن كتاب «برايدنباخ» لسياحاته الى الشرق الأدنى، رسم صوره «ارهارد رويڤيك» وطبع لأول مرة عام ١٤٨٦.
E. Reuwick: Peregrinationes in Terram Sanctam. (1486).

vt in eis erudiret israhelem et vt consuetudinem haberent preliandi ꝛc. Sic fortassis idipsum non incongrue dici potest in proposito vt scilicet sarracenos dimittat dñs vel in flagellum vel exercicium populi xpiani. Sed ego nichil temere diffiniens id doctoribus relinquo. Hoc vnum scio psalmista testante. quia iudicia dei abissus multa ꝛc. Quis autem nouit sensum dñi. aut quis consiliarius eius fuit. Apostolus etiã clamat. O altitudo diuitiarũ sapientie et scientie dei. quam incõprehensibilia sunt iudicia eius. et inuestigabiles vie eius. Et tantũ de Sarracenis.



Sarraceni lingua et littera vtũtur Arabica hic inferiũs subimpressa.

Dal	Dal	Kels	haich	Gzym	Tech	Te	Be	Aleph
ذ	د	خ	ح	ج	ث	ت	ب	ا
Ayn	Dach	Ta	Wadua	Sad	Schyn	Szyn	Zaym	Re
ع	ظ	ط	ض	ص	ش	س	ز	ر
hehe	Nũn	Mym	lam	lam	caph	kibls	ffea	Saym
ه	ن	م	ل	ل	ك	ق	ف	غ
wadstulam pex	ye	lamolyef	wau					
[illegible]	ي	لا	و					

من الصعيد عبر الصحراء النوبية إلى سجندى وسنار. وفى سجندى تحول مع قافلة اخرى عبر طريق لم يطرقها اوروبى بعد، تمر ببربر إلى سواكن، على البحر الأحمر، ومنها أبحر إلى جدة.

وهنا لابد من ذكر عرض موجز لما حدث فى الجزيرة العربية من تطورات على يد الوهابيين وبسببهم منذ غادر نيبور اليمن حتى دخول بوركهارت الحجاز. فحين مات ابن سعود عام ١٧٦٥ الذى كان قد ناصر محمد بن عبد الوهاب، واستطاع بسيفه وعشيرته أن ينشر الفكرة الجديدة ويوطد اركانها، كان الوهابيون يسيطرون على جميع أرجاء نجد. وواصل ابنه عبد العزيز مهمة ابيه فهدد مكة، وبعث بابنه سعود إلى خليج البصرة فاكتسح الكويت، ثم اجتاح كربلاء وهدد حدود بغداد. وفى عام ١٨٠٣ دخل الوهابيون مكة ولكن أهلها قتلوا رجال حاميتهم فيها بعد حين. وباءت محاولة الوهابيين فى الاستيلاء على المدينة وجدة بالفشل. ولكن بعد مقتل عبد العزيز فى العام نفسه جدد ابنه سعود الهجوم على الحجاز فاستولى على المدينة المنورة عام ١٨٠٤ وعلى مكة عام ١٨٠٦ وعلى جدة بعد ذلك بقليل. وفى الاعوام التالية تخطى غزاة الوهابيين حدود الجزيرة العربية فهاجموا النجف ودمشق التى قاومتهم بنجاح. وفى عام ١٨١١ كانت امبراطورية الوهابيين تمتد من حلب شمالا حتى المحيط الهندى، ومن خليج البصرة والعراق شرقاً حتى البحر الأحمر. وبلغ ذعر الحكومة العثمانية حداً بعيداً، حتى حثت محمد على باشا والحت عليه مراراً فى القضاء على نفوذ الوهابيين. وأرسل محمد على ابنه طوسون على رأس جيش لم يستطع الصمود فى بادئ الأمر، ولكنه تمكن بعد تعزيزه من استرجاع المدينة عام ١٨١٢، ومكة عام ١٨١٣. ورغم قيام محمد على بنفسه بقيادة جيش مصرى فى اواخر عام ١٨١٣. إلا أنه أصيب بخسائر جسيمة؛ غير أن المقادير شاءت أن تضرب الوهابيين بموت قائدهم سعود فى اول مايس عام ١٨١٤. أى قبل دخول بوركهارت إلى جدة بشهرين. وبعد أربعة أعوام تم القضاء على الامبراطورية الوهابية الأولى عام ١٨١٨ عندما اعتقل ابن سعود وخليفته عبد الله على يد ابراهيم باشا وتم اعدامه فى القسطنطينية.

وهكذا فقد كان من حسن طالع بوركهارت، ومما ساعد على تحقيق زيارته إلى مكة والمدينة أن وافت المنية سعود قبل دخوله جدة بشهرين، وأن كان محمد على، المتحرر المتسامح، الذى سبق أن قابله فى القاهرة موجوداً فى الطائف آنذاك. ولم ير بوركهارت فى جدة اكثر من بلدة ذات بيوت حجرية مرتفعة. وجدران تخطف الابصار لشدة بياضها. وتحصينات مهدمة. ومدفع كبير وبضعة أشجار نخيل، وصحراء جرداء تحيط بها من كل جانب. وكانت جدة قد اضمحلت تحت حكم الوهابيين بسبب ضعف مواسم الحج، وخوف التجار من إرسال بضائعهم إلى بلاد يعوزها الاستقرار. أما سكان البلدة فكانوا خليطاً من العرب الحجازيين الاقحاح، واليمنيين والحضارمة والمصريين والسوريين والأتراك والهنود وأهل الملايو. وكان كثير من هؤلاء من يتزاوج من الجوارى الحبشيات. وكانت جدة ميناء الجزيرة العربية ومصر، وسوق البضائع الهندية وقهوة اليمن. وكان مدى رخاء البلدة يتوقف كليا على نشاط تجارتها. ولم تقم فيها صناعة بناء السفن لافتقارها إلى الاخشاب اللازمة. ولم تكن حرفها لتتجاوز الحاجات المحلية كالخياطة وصناعة النعال. ويختم بوركهارت وصفه المفصل لجدة بالتنبؤ التالى:

«عندما ستضمحل سلطة الاتراك فى الحجاز، وهذا ما سيحدث عندما تنقطع موارد مصر عن التدفق على ذلك البلد بفضل حكم قدير مستقر كحكم محمد على لمصر، فسيأخذ العرب بثأرهم للخضوع الذى يتقبلونه مرغمين تجاه قاهريهم؛ ومن المحتمل أن ينتهى حكم العثمانيين فى الحجاز بعد مشاهد كثيرة من سفك الدماء.»

ثم واصل بوركهارت رحلته من جدة إلى الطائف، حيث كان محمد على قد أقام مقراً لقيادة جيشه، وعبر الطريق فوق سلسلة من التلال والصخور الجرداء تتخللها الوديان الخصبة. وكجدة، فقد كانت الطائف قد انهارت كذلك تحت حكم الوهابيين، فبدت خرائب تكاد تكون مهجورة. بينما كانت فى السابق سوق القهوة اليمنية عبر الطريق البرى. وكانت تمتد فوق سهل رملى تحيطه تلال منخفضة تنتشر على سفوحها البساتين وحقول الحنطة والشعير ترويها الجداول المنحدرة من المرتفعات.

وفى الطائف استطاع بوركهارت، بفضل تبحره فى اصول الدين والفقه الإسلامى وقواعد اللغة العربية وعلوم القرآن والتفسير أن يزيل كل شك حول حقيقة اسلامه بعد أن اجتاز امتحاناً عسيراً أمام قاضى مكة الذى كان موجوداً فى الطائف آنذاك. ولا تخلو مقابلاته مع محمد على فى الطائف، وما كان يدور بينهما من أحاديث، من أهمية تاريخية ومن طرافة فى القاء أضواء على جوانب من دهاء ذلك الحاكم الكبير وطريقة تفكيره السياسى.

وغادر بوركهارت الطائف فى بداية أيلول (سبتمبر) متجهاً إلى مكة حتى وصلها بعد رحلة يومين فى جو عاصف.

وفي مكة قام قبل كل شئ بفرائضه الدينية داخل بيت الحرام. وحضر مراسيم الحج على جبل عرفات. وامضى ليلته في مسجد المزدلفة واشترك في مراسيم الرجم والتضحية في وادي منى. وأطلق موكبا الحج السوري والمصري مدفعين إعلاناً بفجر يوم الحج وايذاناً بموعد الصلاة. ومن قمة عرفات أشرف بوركهارت على السهل الممتد دونه واستطاع أن يعد حوالي الثلاثة آلاف خيمة، الفان منها للموكبين السوري والمصري ولمرافقي محمد علي وجنوده وألف لعرب الحجاز. أما أغلب الجموع فقد كان بدون خيام. وعندما خيم الليل حملت آلاف المشاعل، ورفع اربعة وعشرون منها أمام باشا مصر، محمد علي، ومثلها أمام باشا دمشق، سليمان. واطلقت المدافع والصواريخ في السماء وراحت الفرق الموسيقية تعزف. وانتقلت جموع الحجاج في هرج صاخب إلى المزدلفة. وبعد خطبة الامام أدى الحجاج فريضة صلاة العيد ثم انتقلوا إلى وادي منى. إن وصف بوركهارت لتفاصيل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة وزيارة العمرة وعرفات ووادي منى وملاحظاته عن مكة عموماً واهلها ومظهرهم وعاداتهم ونفسياتهم وتجارتهم ادق واتم ما كتب إطلاقاً حتى أنه لم يترك شيئاً جديداً يوصف لمن جاء بعده من الأوروبيين إلى بيت الحرام. ومن ملاحظاته المهمة أيضاً وصف قوافل الحج المختلفة وطرق تحركاتها، واهمها الموكبان السوري والمصري، وتليهما قوافل حجاج إيران التي تمر ببغداد ثم يتصل قسم منها بالموكب السوري وقسم يواصل السفر عن طريق البصرة، وقوافل شمالي أفريقيا التي تمر بتونس وطرابلس ثم تلتحق بالموكب المصري.

بعد القيام بما تبقى من الفرائض في وادي منى وفي مكة سافر بوركهارت في كانون الثاني (يناير) عام ١٨١٥ إلى المدينة المنورة وزار ضريح الرسول. ولكنه أصيب في المدينة بحمى اطرحته الفراش. ولما تحسنت صحته قليلا انحدر إلى ينبع ومنها إلى القاهرة حيث انشغل بمراجعة مذكراته واتمامها لنقلها إلى الجمعية الافريقية، وفي الوقت نفسه أخذ ينتظر قافلة فزان طويلا ليرافقها ويواصل رحلته إلى افريقيا. ولكن قواه التي انهكها المرض خانته، ففاضت روحه في الوقت الذي كانت القافلة قد استعدت فيه للسفر في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨١٧. ودفن في المقبرة الإسلامية بعد أن اقيمت له جنازة خليقة بابرهيم بن عبد الله، الحاج التقي الورع، والعلامة الضليع.

وكالرحالة نيبور، فان بوركهارت عالج جزءاً محدوداً، ولكن هاماً في الوقت نفسه، من شبه الجزيرة العربية. إذ أن المنطقة التي استكشفها نيبور كانت هامة بالنسبة للاوروبيين بسبب شهرتها العريقة بالتجارة والخصب. ولكن المناطق التي استكشفها بوركهارت في الحجاز كانت لاتزال سراً عميقاً مبهماً. ولم تكن علاقتها بالتجارة بمقدار ارتباطها بتعاليم ومراسيم دين غريب عن الاوروبيين، مثير لدهشتهم بقوته وثباته. وهكذا فقد غادر بوركهارت الحجاز وهو يحمل معه أدق تفاصيل سجلت قط عن الكعبة ومراسيم الحج وتجارة الحجاز وسكانها. وكان اهتمامه الرئيسي مركزاً على دراسة العرب، بدوهم وحضرهم، وتحليل مجتمعهم وطبائعهم وتعاليمهم الدينية. ورغم أنه لم يساهم كثيراً في توسيع المعارف الجغرافية الدقيقة عن الحجاز إلا أنه قدم دراسة مفصلة واسعة عن المدن الرئيسية كمكة والطائف وجدة، ومن هذه المراكز راح يتحرى بدقة نيبور وتمحيصه عن كل ما يتعلق بالجانب الغربي من قلب الجزيرة العربية وتكوينه السكاني، بحيث قدم معلومات جديدة شيقة عن قبائل هذه البقاع وتعدادها وعاداتها وأسلحتها ونظم معيشتها ومناطق استيطانها وخيولها وجمالها.

ويعتبر بوركهارت البدو من أنبل الشعوب التي عرفها. وهم، رغم كل أخطائهم، أرفع من الاوروبيين في كثير من الصفات، كما أنهم أرقى من الأتراك في كل اعتبار. وقد يحبون السلب والنهب، غير أنهم يعوضون عن ذلك بفضائل اخرى، أما الأتراك، في نظره، فيشتركون في صفات البدوي السيئة ولا يتمتعون إلى جانبها بأية صفة حسنة. والبدوي يحب الحرية بطبعه. وقد جعله هذا الحب يفضل خيامه في الصحراء على حياة الاستقرار الناعمة. والقبائل البدوية، رغم نزاعاتها القبلية، إلا أنها جميعاً تتمتع بكبرياء قومية تجمع بينها. كما اتضح من استيائها لانتصارات محمد علي وألمها لأية خسارة تصيبها على أيدي قوات أجنبية. ويرى بوركهارت أن من أرقى صفات الخلق البدوي عطفه ومعروفه وإحسانه وسلوكه المسالم عندما لا تثار كبرياؤه وتجرح كرامته.

لقد ابدت الجمعية الأفريقية البريطانية اهتماماً كبيراً بما كتبه بوركهارت من مذكرات وملاحظات وتعليقات اثناء سفره فنشرت على التوالي جميع كتبه الموضحة في نهاية هذه المقالة. وقد كتب بوركهات جميع مؤلفاته بلغة انجليزية سليمة تمتاز بالاسلوب الرفيع. رغم أنه لم يبدأ في تعلمها إلا في الخامسة والعشرين. ورغم أنه كان يسجل مذكراته سراً وعلى عجل تحت عباءته أو خلف جمله.

خوفاً من اكتشاف أمره واثارة شكوك مرافقيه فى حله وترحاله. وقد خلف بوركهارت فى وصيته كل ما جمعه من مخطوطات عربية تبلغ الثمانمائة مجلد لجامعة كامبردج. التى بدأ فيها دروسه العربية الأولى.

*

من كل ما سبق ندرك أهمية الدور الذى لعبه الرحالون الألمان، أو الناطقون بالألمانية، منذ العهود المبكرة حتى اوائل عصرنا الحاضر، فى تطوير الاستشراق فى اوروبا، وجعله موضوعاً دراسياً خاضعاً للبحث العلمى بدلا من التعصب والخرافة. ولقد رسم اوائل الرحالين صورة غامضة غريبة للشرق الأدنى. فراح من جاء بعدهم يصححونها ويضيفون إليها حجراً بعد حجر. حتى أصبحت أقرب إلى الحقيقة. وإذا ترك امر دراسة الشرق وحضارته وتاريخه وأديانه للعلماء المتخصصين فى فروع الاستشراق المختلفة، فيكفى الرحالين المنصفين عموماً، والألمان الذين كنا بصددهم خصوصاً، فخر المساهمة فى إزالة كثير من سوء الفهم والتغرض والتعصب، فالمعرفة الصحيحة تزيل الخوف والعداء، وتقيم اسساً جديدة للتفاهم والصداقة.

مراجع البحث

من اهم الكتب التى تبحث فى سير الحجاج الأولين إلى الأراضى المقدسة التالية:

H. von Wissmann, Arabien. Dokumente zur Entdeckungsgeschichte. Stuttgart 1965.

Lahrkamp, Helmut: Nordwestdeutsche Orientreisen und Jerusalemwallfahrten im Spiegel der Pilgerberichte. (Oriens Christianus, Bd. 40, 1956).

Riezler: Jerusalempilger und Kreuzfahrer aus Bayern. (Forschungen zur deutschen Geschichte, Bd. 18, Göttingen, 1878).

Röhricht, R.: Die Deutschen im Heiligen Lande, Innsbruck, 1894.

Tobler, Titus: Bibliographia geographica Palaestinae, zunächst kritische Übersicht gedruckter und ungedruckter Beschreibungen der Reisen ins Heilige Land. Leipzig, 1867.

وبالنسبة لرحلة برايدنباخ، انظر:

Lambert, R. S.: The Fortunate Traveller, London, 1950:

وكتابه باللاتينية: Breidenbach, B. von: Perigrinationes in Montem Syon, 1486.

وبخصوص فون هارف انظر:

Beckingham, C. F.: Some Early Travels in Arabia: (The Journal of the Royal Asiatic Society, 1949).

وكتابه ظهر بعنوان:

Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff von Cöln durch Italien, Syrien, Ägypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palästina, die Türkei, Frankreich und Spanien, wie er sie in den Jahren 1496 bis 1499 vollendet, beschrieben und durch Zeichnungen erläutert hat, herausgegeben v. Dr. E. v. Groote, Cöln, 1860.

أما بشأن نيبور وزيتسن وبوركهارت فانظر:

Hogarth, D. G.: The Penetration of Arabia, London, 1904.

Kiernan, R. H.: The Unveiling of Arabia, The Story of Arabian Travel and Discovery, London, 1937.

Pirenne, Jacqueline: À la découverte de l'Arabie. Paris, 1958.

وقد صدرت كتبهم التالية:

Niebuhr, K.: Beschreibung von Arabien, 1772.

— Reisebeschreibung von Arabien und andern umliegenden Ländern, 2 Bde., 1774—78.

— Reisen durch Syrien und Palästina, 1837.

انظر ايضا:

Thorkild Hansen: Reisen nach Arabien. Die Geschichte der königlich-dänischen Jemen-Expedition. Hamburg 1965.

Ulrich Jasper Seetzen's Reisen durch Syrien, Palästina, Phönizien, die Transjordan-Länder, Arabia Peträa und Unter-Ägypten, Herausgeber: F. Kruse, Berlin, 1854—59.

Burckhardt, J. L.: Travels in Nubia, 1819.

— Travels in Syria and the Holy Land, 1822.

— Travels in Arabia, 1829.

— Notes on the Bedouins and Wahabys, 1830.

— Arabian Proverbs, 1831.